الرائد المعجمي
أبو نصْر الجوْهريّ النيسابوري
شهيد الإبداع
في الذكرى الألفية لوفاته سنة 2009 م

الدكتور / ابن حويلي ميدني
جامعة الجزائر

مقدمة :

تحفل الأمم المتحضّرة في سائر الدنيا برجال العلم وأهل الفضل فيها، اعترافا بما قدّموا من جهود لأجل تنوير العقل، وتربية الهمم على حب العلم والعمل، و محو الجهل والكسل، وما أكثر علماءنا ذوي الفضل على الأمة، وما أجدر بنا أن ننوّه بجهودهم العلمية، وما تركوا من آثار خالدة تشحذ الهمم وتبعث الأمل في الاقتداء بما قدموا، فلعلّ النفوس تحي إن نظرت ، ولعلّ العقول تنهض إن اعتبرت.

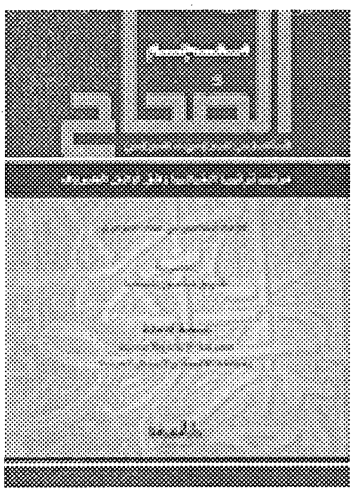

صورة غلاف معجم الصحاح
في طبعة حديثة [1]

وأقل واجب على الأمة المؤمنة بقدرات علمائها، المتطلعة إلى مستقبل أجيالها أن تقف تقديرا وتنحني عرفانا لمن شرّف ماضيها، وتخص بالذكر الطيب أولئك الذين رصعوا جبينها إكليل الإبداع العلمي والأدبي، ووشّحوا صدرها وسام المجد خالدا تباهي به الدنيا إلى يوم الدين.

ومن أفاضل علماء العربية الذين تركوا بصماتٍ مشرّقةً في مجال البحث اللغوي، وهم كُثُر، نتذكّر فنترحّم على أبي نصر إسماعيل بن حمّاد، الجوهري، الفارابي، النيسابوري، في ذكرى وفاته الألفية، هذا العام 2009م.

1 - الجوْهريّ ، في المكان والزمان :

1 / 1 - الانتساب والمرْبى :

ولقب (نيسابوري) نسبة إلى مدينة (نيسابور)، واللفظ هذا أصله من مدينة (نيشابور) قبل تعريبه ، وهي مدينة تابعة تاريخيا إلى إقليم «خراسان» ، قال ياقوت في وصفها: « والعامة تسميها نشاوُور... وهي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ، ومنبع العلماء لم أر فيما طوّفت من البلاد مدينة مثلها... ومن هناك طالت أعمار أهلها». [2] ورد ذكرها في المصادر بأسماء مختلفة منها (أبرشهر) ، وهي اليوم في إيران.

والمنطقة عريقة في تاريخ الحضارة الإسلامية ، بلغت قمة ازدهارها في القرن الثالث الهجري، ويسجل التاريخ أنها فتحت في عهد الخليفة عثمان بن عفان على يد القائد العربي «عبد الله بن كُريز» سنة

29هـ/649م. [3] ومنذ ذلك الوقت نزح إليها الكثير من العرب واستقروا بها واتخذوا لهم مواطن فيها لازالت آثارهم شاهدة إلى اليوم على أنها كانت مركزا إشعاعيا وحضاريا ، وكانت من أمهات مدن العالم الإسلامي بما امتلكت من منابع العرفان، ومراكز العلم والثقافة والتجارة عبر العصور، ابتداء من الفتح الإسلامي وحتى أوائل القرن 7هـ/13م.

ويكفي أن نذكر في ميدان الإشعاع الروحي ما كان لمساجدها وجوامعها العامرة من خدمات جليلة في مجال نشر العلوم الإسلامية وعلوم اللغة العربية وآدابها ، وكان لمسجد (عقيل) بالذات فضل كبير، إذ كان مجمعاً لأهل العلم لشهرة مكتبته ، وما احتوت من خزائن الكتب المتنوعة الموقوفة أصلا على طلاب العلم، وهي من عظيم منافع نيسابور التي يطلبها الناس في كل عصر ومصر.

وفي مجال التربية والتعليم نشير إلى (نظامية نيسابور) التي أسسها الوزير السلجوقي « نظام الملك» [4] حوالي عام 450هـ/1087م ، والتي كانت تقدم لطلاب العلم من شتى أصقاع البلاد الإسلامية خدمات متميزة ، يكفيها فخرا أن تخرّج منها علماء وفقهاء حملوا اسمها عاليا، وكانوا ذخرا للأمة الإسلامية، بما صنعوا من أمهات الكتب والمصادر العريقة.

ومن أعلام (نيسابور) في الفقه واللغة والفكر...، أولئك الذين تركوا بصماتِهم في مدارسها النظامية وحلقاتها العلمية والفقهية، نذكر ثلّة من الأعلام البارزة، ابتداء بعلماء الشريعة، وانتهاء بعلماء اللغة والأدب، مرتبة وفق تاريخ الوفاة:

- الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، أمير أهل الحديث، لم يشهد تاريخ الإسلام مثله في قوة الحفظ ودقة الرواية والصبر على البحث مع قلة الإمكانات، حتى أصبح منارة في الحديث وفاق تلامذته وشيوخه على السواء. وهو صاحب كتاب « صحيح البخاري» أصحّ الكتب عند أهل السنة بعد القرآن الكريم، هذا العالم نفسه أصله من منطقة بخارى - خراسان، طوّف الدنيا ينشر العلم ، ومكث في نيسابور زمنا، يأخذ عنه علماؤها وطلابها «الحديث الصحيح» ، وفيها تعرض إلى محنة شديدة مع أمير (بخارى) كادت تعصف به، وبرحمة ربه خرج منها سالما غانما. توفي 256هـ/ 869م.

-الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صاحب «صحيح مسلم»، هو أحد الأئمة الحفاظ وأعلام المحدثين. توفي عام 261هـ/ 874م.

-أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، من كبار المحدثين ، ومن أصحاب (الصحاح) ، اشتهر بكتابه (المستدرك على الصحيحين) ، لقب بالحاكم لتوليه القضاء في نيسابور مرة بعد مرة ، ثم اعتزل بنفسه ليتفرغ إلى العلم والتصنيف. توفي عام 405هـ/1014م.

- الإمام أبو الحسن على بن أحمد الواحدي النيسابوري، صاحب التفسير، وإمام علماء التأويل في زمانه، ومن مؤلفاته البسيط، والوسيط، والوجيز. توفي عام 468هـ/ 1065م .

- أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد، لقبُه ضياءُ الدين ، ومشهور بالإمام الجُوَيْني، نسبة لجوين من قرى نيسابور، ويلقب

أيضا بإمام الحرمين، شافعي، أشعري، كان عالماً أصولياً نظّاراً، محققاً بليغاً، شيخ الشافعية بنيسابور، جلس للتدريس في نظامية نيسابور ما يقارب الثلاثين سنة. توفي عام 478هـ / 1085م.

- أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الشافعي، الإمام الغزالي ، حجة الإسلام، ملأ الدنيا ذكره ، وطار في الآفاق صيته . تتلمذ على يد الإمام الجويني ، ثم خلفه في التدريس. كان رئيس المدرسين في نظامية نيسابور. له تصانيف كثيرة في التصوّف والفقه والفلسفة... ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب « إحياء علوم الدين» . توفي عام 505هـ/ 1111م.

- أبوسعد محمد بن يحي؟ بن منصور النيسابوري ، الملقب بـ «محي الدين» ، الفقيه الشافعي:

أستاذ المتأخرين ، كان عالما زاهدا، أخذ الفقه عن حجة الإسلام أبي حامد الغزالي. برع في فقه المذهب الشافعيّ ، وانتهت إليه رئاسة فقهائه بنيسابور. توفي عام 548 هـ / 1153م.

- عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، ويعرف بأبي منصور الثعالبي النيسابوري، صاحب التآليف الجمة، ومنها (معجم فقه اللغة) ذو الفائدة العظيمة لطلاب علم اللغة في مجال الموضوعات والحقول الدلالية، وهو مطبوع معروف. توفي عام 429 هـ /1038م .

وفي ذكر علماء نيسابور وأدبائها وفقهائها فيْضٌ من الكلام لا يتسع المقام هنا لذكر كل ما أردنا ذكره، غير أنه من الممكن- لمن يريد المزيد - أن يتصفح موسوعات ضخمة كثيرة سجلت تاريخ هذه المدينة وعجائبها،

ومن أعظمها فائدة كتاب أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (العالم المعّرف أعلاه)، جمع فيه تاريخ علماء نيسابور في ثمانية مجلدات ضخمة، وأسماه « تاريخ نيسابور»، وذيّل عليه أبو الحسين عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي النيسابوري، المتوفّى سنة 529هـ/1134م كتاباً أسماه « السياق لتاريخ نيسابور»، وهو في مجلد ضخم.

وفي هذا الوسط المفعم بالحركة الثقافية والنشاط العلمي الخلاق سطع نجم عالمنا أبي نصر الجوهري، ليكون مَعْلَمًا متميّزا بين أقرانه.

1 / 2 - الجوهريّ ... مَنْ هُوَ ؟

هو إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصْر، الفارابي، النيسابوري. واختلف المؤرخون في سنة ميلاده ووفاته، كما اختلفوا في كنيته، فقيل هو أبو نصر، وقيل أبو العباس، والأولى أرجحُ . وأغلب المؤرخين على أنه ولد عام 332هـ / 943م في مدينة فاراب (تركيا) (5) ، وإليها نسب أولا، فقيل أبو نصر الفارابي.

واتفقت كثير من المصادر- التي تحت يدي- على نعته بصفات حميدة فريدة ميّزت شخصيته الفذة، وكان ممن يأكل من عمل يده، ويظهر من لقب (الجوهريّ) أنه قد اشتغل يوما ما بحرفة (صناعة الجواهر)، إلى جانب اهتمامه بطلب العلم والأدب والفنّ والتضلّع فيهما حتى أصبح إماماً لا يبارى وعَلَمًا لا يمارى، ويضرب بجودة خطه المثل،

حتى لا يكاد يُفرّق بين خطه وبين خط ابن مُقلة [6] ، وعلّم هذا الفن لمن يريد، واستغل موهبته هذه في كتابة المصاحف والكتب الأخرى، فاتسعت بذلك قريحته بكثرة الاطلاع والممارسة وحسن المدارسة.

وقد أخذ في مسيرة تحصيله عن جملة من كبار اللغويين المؤلفين والمبدعين في زمانه، كأبي علي الفارسي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (ت 377 هـ/987م)، وأبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان (368هـ/978م) ، وأما الخال أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم، الفارابي (ت 349هـ/ 961م)، الأديب النحوي واللغوي المشهور، فقد كان له الأثر البليغ في تكوين شخصية ابن أخته (إسماعيل) العلمية بشكل اتضحت معالمه في اتساع علمه، وتتبّع خطاه في طلب العلم والتعلّم وطرائق التأليف والنشاط الفكري والإبداع بعد ذلك.

وكان (الخال) نفسه رائدا في الطريقة التي ألّف بها معجمه (ديوان الأدب) ، تلك الطريقة المبتكرة التي قامت على التبويب والتفصيل بكيفية متميزة ، إذ ترتب الكلمات بعد تجريدها من الزوائد بناء على الحرف الأخير، ويسمى بابا، والحرف الأول ويسمى فصلا. وجاء (الجوهري) فأخذها عن خاله وطوّرها، وشهّرها في (معجمه الصحاح) الذي ألفه في ما بعد، فطار به صيته في الآفاق، وبه صار إماما للآخرين، إذ تواترت طريقته هذه وظهرت في جملة من الإنجازات المعجمية المتداولة (سنذكر بعضا منها لاحقا بإذن الله) .

وكان (إسماعيل) مثل خاله (إسحاق) تماما، يحب الأسفارَ والتغرّبَ طلبا للعلم والرواية، قضى معظم حياته متجوّلا باحثا عن اللغة والأدب ،

فدخل العراق منبت علماء اللغة وذوي الشهرة الأولين، أصحاب الفكر والمذاهب والرواية اللغوية الأصيلة، أولئك المشهود لهم بسعة الفضل في اللغة والأدب والفنّ، فالتقى مشاهير علماء البلد وأخذ عنهم، ثم يمّم الحجاز، وشافَهَ باللغة العربَ العاربةَ، وطوّف بلاد ربيعة ومضر، وأخيرا عاد إلى خُرَاسان، فنزل الدامغان عند أبي الحسين بن علي، أحدِ أعيان الكتّاب والفضلاء، فاجتمعت لديه أسبابُ العزّة ، حتى صار« من أعاجيب الزمان ذكاءً وفطنةً وعلمًا » .[7]

1 / 3 - أبو نصر... العالم المصنّف

وبالنظر إلى العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية التي تعاورت الجوهري فشكلت شخصيته وصقلت مواهبه، التي مكّنته من تحصيل الفنون والآداب وتفرّد بين أقرانه بحبّ الإبداع والظهور حتى كان المجدّد المبدع. وهو يكرّس خالص جهده لإظهار مواهبه وإبراز عزيمته في التأليف والتصنيف في ميادين شتى من فنون المعارف والآداب والخطاطة...، وظهرت له كتب قيمة في النحو والعروض...، وله أنظار جريئة في اللغة وعلومها، وشارك الشعراء ميدانَهم، فقال مقطوعاتٍ لكنها لم ترقَ به إلى مستوى مصاف شعراء زمانه.

وكانت دعوات تيسير استعمال اللغة العربية وقواعدها ابتداء من مادة النحو (أشهر الموادّ التعليمية وأقدمها وأكثرها تعقيدا في نظر الكثير) تصدح عالية بغية رفع العراقيل التربوية في وجه المعلمين والمتعلمين، كما هو الحال مع ثورة ابن مضاء الأندلسي على نظرية العامل في كتابه

المشهور (الرّدّ على النحاة)[8]، هذه النظرية التي تعتبر من أسس الإعراب الأولى، وقد دار حولها خلاف كبير بين المدارس النحوية العربية عبر الأزمان. وانتهاءً بمادة العروض والقوافي وأوزان الشعر التي تعدُّ هي الأخرى من المواد التعليمية التي لا تقلّ تعقيدا عن مادة النحو، فكلاهما يتطلب براعة الفكر وصحة التدليل وقوة المنطق.

ومادة العروض بالذات هي من أهمّ المواد التعليمية في حصص الشعر وقواعده، ولا تقل أهمية وصعوبة عن مادة الرياضيات، فكلاهما يتطلب دراية وقدرا معتبرا من استعمال المنطق الصوري والتدليل العقلي، ومن لم يكن له نصيب من هذا فلا حظّ له في إتقان أي فن منهما (النحو والعروض) على الإطلاق.

وقد وجدنا للجوهري أثرا في (فن العروض) ، وصوْلاتٍ ضليعةً في مسالك التفعيلات، ولم يفوّت فرصة اهتمام الناس بهذا الميدان فأظهر براعته في حل مغاليق هذا العلم العويص، وانبرى يؤلف فيه فكان له كتيّب أسماه (عروض الورقة) ، طرَح فيه آراءَ عروضيّةً خالف في بعضها أستاذَ الجميع الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ / 791م) ، شيخَ النُّحَاةِ وأستاذَ سيبويه. صاحبَ أول معجم عربي، ومؤسس علم العروض والقوافي، بل نعتبره – نحن – أبَ الدراسات اللغوية العربية الأولى دون مُنافس.

قدم الجوهري عدة استدراكات على الخليل ، فأجاز زحافات كان نظام الخليل يمنعها، كما أثبت أنواعا لبعض البحور نتيجة اعتماده على شاذ الشعر وعلى المُحْدَث في زمانه ، من ذلك مثلا أنه يقول: «وأما مفعولات،

فليس بجزء صحيح، على ما يقوله الخليل، وإنما هو منقولٌ من مستفعلن مفروق الوتد. لأنه لو جاز أن يكون صحيحا لتركّب من مفرده بحر، كما ترتب من سائر الأجزاء ».

ويقول عن الرجز: « ويجوز تفريق الوتد في مسدسه فيصير مستفعنلُ بتقديم النون على اللام وهو الذي يسميه الخليل بالمنسرح».

وقد تتبع الباحث المغربي (محمد العلمي) تلك الآراء والأنظار المستدركة والمبتدعة من خلال كتاب (عروض الورقة)، وحلل الكثير من مضامينه القيمة في كتاب له مطبوع.[9]

وأما عن متن اللغة ، والمقصد بالمصطلح هنا إلى المفردات ودراستها وعلم المعاجم والتأليف في ميدانه ، فإن للجوهري باعا طويلا وإبداعا ملموسا خلد اسمه ونشاطه وجعله أعجوبة زمانه ، بما فعل ، ونقصد بذلك إنجازه معجما لغويا صار به إمام مدرسة قائمة بذاتها تسمى مدرسة الجوهري المعجمية.

2 / 1 - معجم الصحاح وأعجوبة الترتيب :

1 - الصحاح معجم لغوي عام :

ويعدّ من أشهر معاجم التراث ، وعليه قامت شهرة مؤلفه ، بل هو أهم إنتاجه على الإطلاق، واسمه الكامل«تاج اللغة وصحاح العربية »، وفيه آراء كثيرة في تسميته ، أهمها الصِّحاح (بكسر الصاد) ، والصَّحاح (بفتح الصاد) ، والأول هو المشهور. ومعلوم أن الغرض المعجمي من وجود المعجم على العموم هو غرض تربوي بالدرجة الأولى، يتمثّل في (إزالة

الإبهام والغموض) عن الألفاظ الموجودة بالفعل في (القائمة الاسمية للقاموس العام) عند الأمة الناطقة بلسانه ، تلك الألفاظ التي يفترض وجود نسبة القبول الجمعي على تداولها والرضا الخاص باحتضان استعمالها عند الضرورة ، فمتى كان الجوهري وما صحّ عنده بالذات هو معيار الفيصل لقبوله الألفاظ أو رفضها في الضمير الجمعي للقاموس العام ؟ مع العلم أنه لم يشرح لنا صفات هذه الصحة التي يرمي إليها بتلك الانتقائية المعتمدة عنده في البحث عن (الصحيح من الألفاظ)، وماذا يقصد من مصطلح (الصحيح) حينما قال : «أما بعد فإني قد أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها ، وجعل علم الدين والدنيا منوط بمعرفتها، على ترتيب لم أسبق إليه ، وتهذيب لم أغلب عليه ، في ثمانية وعشرين بابا ، كل باب منها ثمانية وعشرون فصلا، على عدد حروف المعجم وترتيبها... بعد تحصيلها بالعراق روايةً وإتقانها درايةً، ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية، ولم آلُ في ذلك نُصْحاً، ولا ادخرتُ وُسعاً » .[10]

لقد لخص القول السابق الذي تضمنته مقدمة المؤلف جملة من الخصائص المميزة لبحثه، ويهمّنا منها ما تعلق بجمع المادة وترتيبها، وابتداء نقول إنه قد ركّز نبر القول على ما اعتقده مقيّما لجهده، مبرزا لاجتهاده ، ومنه اعتماده على السماع ومشافهة العرب الفصحاء في البوادي في الحجاز وربيعة ومضر حيث القبائل الفصيحة، وإلزام نفسه بما صحّ لديه من لغتهم، ثم اتخاذ منهجا تربويا في عرض المادة وتقريبها إلى التناول إلى حاجة الناس التربوية ليقدمها في معجمه العملي الميسّر،

فيكون بذلك فعله أقرب إلى المنطق التداولي في اللغة، الذي يرمي دوما إلى تلبية الحاجات الملحة في التعبير عن مختلف أغراض الحياة بسهولة ويسر، وأقصد بالحاجة هنا القدرة النشطة على إزالة الإبهام والغموض ، ومن ثمة فك معضلة التعبير باللسان عن الأغراض والمعاني المستجدّة. وكل ما لا يفيد - من قريب أو بعيد - في معالجة مثل هذه القضايا يُفترض إبعادُه عن الطرح.

هكذا يصرّحُ بأنه قد استمدّ مادة كتابه من السماع، والرواية عن العلماء، ومن مشافهة العرب في البوادي، ولكنه قد أخذ أيضا من مؤلفاتٍ سبقتْه إلى هذا الميدان كالعين، والجمهرة ، وما إليهما... ، وليستْ فعلتُه هذه بدعةً، فقد أثبت التاريخ أن أخْذَ اللاحق عن السابق أمرٌ مألوف ومؤكد ومصرّح به أحيانا باللفظ والمعنى، وجاء من بعد الجوهري من أخذ مادة (الصحاح) وجعلها رافدا لأعماله ومَعينا ؛ كالفيروزأبادي، وابن منظور، والصغاني، والزَّبِيدي ... ، وغيرهم . (وسأكشف الدليل في الصفحات الآتية).

ومعجم الصحاح هذا الذي بأيدي الناس اليوم، وعليه اعتمادهم، أحسن تصنيفه، وجوّد تأليفه ، وهو معجم لغوي ، وأعني بذلك أنه مصنّف « يمثل مخزنا للموادّ اللغويّة التي تعدّ لَبِنَة في بناء بقية المعاجم. وبدايته قديمة تعود إلى بداية حاجة الناس إلى المعرفة. و المعجم مؤلف مَرْجِعيّ يحتلّ مكانة في تقدير المثقفين بوصفه «حُجّة» في مادّته. وعادة ما يكون « وحيد اللسان Monolingue ». يتناول جوانب المعرفة بحسب ما يسطّر له من أهداف تربوية، فيشمل كل ما يمكن جمعه من موادّ اللغة،

قديمَها وحديثَها، مستعملَها ومهملَها. وقد يتناول المعارفَ بأنواعها دون حدود، لذلك فهو مُتميّز بصفة التوسّع(Extensif) ، إذ ليس للمعجم العام حدّ معيّن في الحجم، باعتباره يجمع بين سِمَات عديدة لأنواع المعاجم، كأن تكون فيه سماتُ المعجم المفهرس، والمعجم السياقي، والمعجم الدلالي... وأنواع من معاجم أخرى، كلها في عمل معجمي واحد، حتى أنه قد يستغرق حجمُه آلافَ الصفحات، ويأخذ إعْدَادُه أمَدًا طويلا، فيتجاوز مقادير أعمار الباحثين». [11]

إن للجوهري نظرةً أخرى هي أقرب إلى الاعتبار التداوُلي في مفاهيم البحث، ومعلوم أن الجوهري قد ألّف معجمَه في فترة لم تكن الوسائل المساعدة فيها متاحةً، كما هي متاحة اليوم، ومجرّدُ التفكيرومحاولة التطبيق يعتبر سبقا يحسب في ميزان حسناته العلمية في مجال البحث التداولي، فهو، وإن كان قد سبقه من حاول طرق هذا الباب كمعجم البارع وتهذيب اللغة، إلا أن معجم «الصحاح» هو من اتّسم بهذه الخاصية وعُرف بها، مما يساعد على فهم طبيعة الفكر اللغوي عند الجوهري المائل إلى البحث في المنافع المباشرة لخصائص اللغة الاجتماعية التي من أهمها التعبير عن الأغراض من أقرب طريق وأوضحها ، ولا يكون ذلك إلا بالقدر المطلوب، ومنه (الصحيح من الكلمات) الخادمة لقضية التعبير والتبليغ بين أفراد المجتمع، على اعتبار أن اللغة كلها هي في الواقع «أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم». [12]

هذا الملمح الاجتماعي طالما شاع في مصادر التراث اللغوي العربي، مع العلم أن ابن جنيّ يكون قد سبق من حيث الفكرة – رغم بساطة

العرض – أقوال المحدثين، بجعله اللغة ظاهرة اجتماعية، نفسيّة وبشرية...، وعليه فإن عملية التعبير السليم ومن أقرب طريق يستدعي البحث عن وسيلة لتوفير الجهد بالتزام الصحيح ونبذ ما سواه.

ويَرى ابن خلدون أن من أهم أغراض اللغة البيان عمّا في الضمائر من مَعان وأفكار ومقاصد، والبيان في نظره « إنما يكون بالعبارة؛ وهي الكلام المركّب من الألفاظ النّطقيّة التي خلقها الله في عضو اللسان مُركّبةً من الحروف، وهي كَيفيّة الأصوات المقطّعة بعضلة اللهاة واللسان ليتبيّن بها ضمائر المتكلّمين بعضهم لبعض في مخاطبتهم » [13].

وقد شغلت دراسة اللغة من حيث الوجهة الاجتماعية فكر الدارسين، قبل ابن خلدون وبعده ، فلا غرابة أن يتفطّن الجوهري نفسه إلى أهمية البحث اللغوي التطبيقي، ويخلص من اختياره (صحيح اللفظ) في معجمه إلى أن الناس يبتغون (التعبير السليم بأقل جهد)، وهي المعضلة ذاتها التي تريد التداولية معالجة تعقيداتها وفك خيوطها المتشابكة في إطار الوظيفة الاجتماعية للغة ، هذه الوظيفة التي كان علماؤنا العرب الأولون قد نبّهوا إلى أهميتها دون تبيين حدودها أو الإفاضة في بلورة مصطلحاتها، وجاء المحدثون من علماء الغرب فألفوا في وصف حدودها ومعالمها وقيدوها بنظريات نسبوها إليهم (!)، وعلى رأس هؤلاء العالم اللغوي الفرنسي السويسري دي سوسور(de saussure) الذي يرى اللغة ظاهرة اجتماعية، لها « جانبانِ اثنان، فَرْدي واجتمَاعيّ، ولا يمكن تصوّرُ أحدِهما من دون الآخر»[14] .

تعدّ (الكلمة) الوحدة الأساس في بناء المعجم اللغويّ ، وقد تدعم بوسائل أخرى غير لغوية، ولذلك قيل بأنّ المعجم كتاب يضم بين دفتيه أكبر عدد من مفردات اللغة مقرونة بشرحها، وتفسير معانيها، على أن تكون المواد مرتبة ترتيباً خاصاً، إما على حروف الهجاء أو الموضوع، «والمعجم الكامل هو الذي يضم كل كلمة في اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها وشواهد تبيّن مواضع استعمالها » . [15]

2 - خصائص مادة الصحاح المعجمية، وأعجوبة الترتيب:

بلغ عدد المواد اللغوية في معجم الصحاح ما يقارب الأربعين ألف مادة، جمع جلها من الميدان اللغوي مباشرة (كما سبق قوله)، وهو رقم كبير بالموازنة إلى المعاجم اللغوية التي سبقته ، وسار في تنضيدها مسلكا خالف فيه من سبقه ، وحاول أن يتخلى عن طرائق الأولين فلم يلزم نفسه بما ألزموا أنفسهم به من صعوبات الترتيب والتبويب ، ومعلوم أن أشهر معجم جاء قبـله هو كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، وقد اتبع منهجه في الترتيب الصوتي والتقليبات [16] ثلة من المعجميين فألفوا على منواله.

وأما عن الجوهري فيبدو لي أن كَلَفَه بالتجديد وميلَه إلى الإبداع وحب (الظهور) كان الدافع الأساس إلى تحلي الرجل بسلوكيات غريبة أدناها ولوج باب المغامرة الواسع ، وأقصاها امتطاء مركب (الانتحال) ، فمثلا لو أن الناظر منا تمعّن سرّ شهرة (معجم الصحاح) العائدة أصلا إلى (فن

الترتيب المعجمي) لوجد بيسر أصول هذا الترتيب عند خاله أبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم، الفارابي (ت 349هـ/ 961م) ، في كتابه (ديوان الأدب) ، وما كان من فعل الجوهري مع قصة الترتيب إلا (تلميع) الموجود ونسبته لنفسه .

وأجملُ الآن بعضَ خصائص (معجم الصحاح) التي شهّرته، ثم نتمعّن شيئا من مزاياه الكثيرة :

1 – التزم ترتيب حروف الهجاء المعروفة منذ (نصر بن عاصم) بعددها 28 حرفا ، وحاول أن يجعل أبواب الكتاب بعددها ، إلا أنه جمع بين الواو والياء في باب واحد ، فكانت الأبواب 27 بابا فقط ، أما الفصول فجاءت 28 فصلا بحسب عدد حروف الهجاء ...، وقدم الهاء على الواو، واختتم معجمه بالألف اللينة.

2 – يجرد الكلمة من (اللواحق و اللواصق) وصولا إلى المادة المجردة التي تكوّن الأصل (الثلاثي أو الرباعي) ، فمثلا: مسكن، استغفر، معلمون ...، تصبح الكلمات بعد التجريد : سكن، غفر، علم...، ثم تكتب أصولا معجمية على هذا الشكل (س ك ن)، (غ ف ر)، (ع ل م).

وإذا كان في الكلمة حرف مقلوب عن حرف آخر يردّ إلى أصله حتى تتميز حروف المادة الأصلية، فمثلا همزتا (سماء) و (دعاء) أصلهما (سماو) و (دعاو) . يعودان إلى أصلين مختلفين : (س م و) و(دع و) .

3 - يرتب المواد في الباب بحسب الحرف الأخير، وفي الفصل بحسب الحرف الأول، فمثلا (س ك ن) توضع في باب (النون)، وفصل (السين) ، و(غ ف ر) في باب (الراء) فصل (الغين) ، و(ع ل م) في باب (الميم) فصل (العين) . وتخلص العملية إلى:

الكلمة	الأصل	الأصل المعجمي	الترتيب
مسكن	سكن	س ك ن	باب(ن)+فصل(س)
استغفر	غفر	غ ف ر	باب (ر)+ فصل (غ)
معلمون	علم	ع ل م	باب(م) +فصل (ع)

ولم يكْتَفِ الجوهريُّ بالوقوف عند الحرف الأخير من الكلمة في ترتيب الأبواب والحرف الأول بالنسبة للفصول، بل تجاوز ذلك إلى ترتيب المادة في الفصول ذاتها واعتبار الحرف الثاني في الثلاثي، والحرف الثالث في الرباعي، والحرف الرابع في الخماسي، فجاء ترتيبه على كيفية بديعة ميّزت إنجاز (الصحاح) عن المعاجم الأخرى ، فذاع به صيته ، وباهى به أقرانه، إذ قال في مقدمة المعجم: «على ترتيبٍ لم أسبق إليه، وتهذيب لم أُغلب عليه ».

4 - وبالنظر إلى طبيعة الكلمة قسم الكتاب إلى ستّة أقسام هي : السالم - المضاعف- المثال - ذوات الثلاثة - ذوات الأربعة - الهمز... وكلّ قسم في بابين: الأسماء والأفعال.

5 -وتجنّبا لمخاطر التصحيف ابتدع الجوهري جملة من السمات المحسوسة منها ضبط الكلمات بالحروف والأوزان.

6 – حرص على إفادة القارئ بمعلومات متعلقة بجملة القواعد النحوية والصرفية واللغوية، مع جرأة في مناقشة آراء العلماء الذين ينقل عنهم، ومع التنبيه إلى مواطن الاتفاق والافتراق، وقد يغلّب رأيا على آخر دون غلو، كما أنه يهتم كثيرا بنسبة ما ينقل إلى أصحابه.

7 – والسرّ في اعتماده أواخر الألفاظ في ترتيبها ، بدلاً من أوائلها، ربما يعود إلى غلبة فن السجع على كتّاب عصر الجوهري، إذ كانت المادة المسجوعة مطلوبة بحدة لحاجة الشعراء والكتاب إلى القافية والكلام المسجوع. وقراءة متأنية في مقدمته قد تدل على غلبة هذا الفن في كلامه ...، وهذا ملمح (تداولي) واضح.

وقد اهتدى المحقق عبد الغفور عطار إلى تفسير مقنع لاختيار الجوهري لمنهجه بقوله: « رأى الجوهري أن الفاء والعين لا تثبتان في موضع، ولا تبقيان على حال، أما اللام فثابتة، فترك ترتيب الكلمات على أوائل الحروف لان فيه متيهة الباحث الذي لا يعرف التصريف والمجرد والمزيد، فكلمة « أكرم» واستنوق وترهل ومحجّة تضلل الباحث الشادي، بل رأيت بعض العلماء يضلون في الكشف عن مواضعها من المعجم، ولا يعرف في أي حرف هي ... أما طريقة الجوهري فمأمونة هادية، فيجد الباحث «أكرم» وكل ما تفرع من مادة «كرم» في باب الميم، واستنوق في باب القاف، وترهل في باب اللام، ومحجّة في باب الجيم، وإذا كان الباحث عارفا بالمجرد والمزيد فإنه سيجد أكرم في فصل الكاف، واستنوق في فصل النون، وترهل في فصل الراء، والمحجّة في فصل الحاء... وأعتقد

أن ما ذكرته هو الذي حمل الجوهري على اتباع منهجه الذي ابتكره ابتكارا » .[17]

وفي عبارة (ابتكره ابتكارا) دلالة على أن المحقق جازم بنسبة المنهج إلى الجوهري ، مع وجود آراء مخالفة تراه مقلدا لا مبدعا، وأن رائد هذه الطريقة ومبتكرها إنما هو أبو بشر اليمان بن اليمان البندنيجي (ت 284 هـ/897 م) . وأما قول الجوهري :« على ترتيب لم أُسبَق إليه » ، فربما يدلّ على أنه لم يعرف عمل (البندنيجي) هذا في مصنفه «كتاب التقفية» ولم يطلع عليه، إذا استبعدنا هاجس المنافسة العلمية ، باعتبار أن الفارق الزمني بينها مديد.

والخلاصة أن معجم الصحاح قد تميز بسهولة البحث فيه، وعناية المؤلف بالمسائل النحوية والصرفية إذا عرضت له، كما يتميز بدقة نظامه وبساطته في الوقت نفسه.

3 - أثر الجوهري في من جاء بعده :

كان معجم (الصحاح) محط أنظار العلماء والباحثين وطلاب اللغة المتميزين. وشاعت طريقته في الترتيب، ولقيت من الشهرة ما لم تلقه أية طريقة ترتيب أخرى قبله ، وسارت عليها معاجم هي معالم كان لها وزنها في التراث اللغوي. وتعددت أسماؤها، ولعلّ النّاظر في مخزون هذا التراث وفي تلك المنجزات المعجمية يدرك من أسمائها غرض أصحابها، وطريقة جمع مادتها، فكل اسم منها يوحي بذلك على وجه التقريب، كما هو الحال مع معجم (الصحاح).

3 /1 - تلاميذ الجوهري و مآثرهم المعجمية :

صار الجوهري شيخا لمدرسة، ولها تلاميذ تيمموا منهجه. وتأثرُ علماء زمانه بإنجازه العلمي وفكره المعجمي بارزٌ واضحُ المعالم والأهداف لدى الكثير منهم، وقد أحصى محقق (الصحاح) أحمد عبد الغفور عطار وأثبت في مقدمته أمورا هامة تدل على العناية البالغة والمكانة المرموقة التي تبوّأها الصحاح وصاحبه، فوجد تسعة تعليقات، وسبع حواش، وتسعة كتب جمعت الصحاح مع غيره من المعاجم، وسبع تكميلات ومستدركات، وعشرة كتب تناولت الصحاح بالنقد، وستة عشر كتابا أُلفت في الدفاع عن الصحاح، وسبعة عشر مختصرا، وثمان ترجمات إلى اللغتين الفارسية والتركية، وعشرة كتب اقتبست اسم الصحاح أو سارت على منهجيته. [18] ويمكن أن نأتي لاحقا على ذكر أهمها من وجهة نظرنا :

1 - الإمام الصغاني ومعاجمه اللغوية الثلاثة :

الصَّغَانِي أو الصّغَنِيّ، واحد من أنجب تلاميذ الجوهري ، واسمه الكامل : رضي الدين، الحسن بن محمد بن الحسن. ولد في لاهور بإقليم البنجاب (شمال الهند). واختلفوا في سنة ميلاده، والراجح أنها 577 هـ/1181م. وقال السيوطي في (بغية الوعاة) إنه « الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علي العدوي العمري، الإمام رضي الدين أبو الفضائل الصغاني – بفتح الصاد المهملة وتخفيف الغين المعجمة، ويقال الصاغاني بالألف – الحنفي. حامل لواء اللغة في زمانه». وذكر الزَّبِيدِيُّ

في« تاج العروس» [19] أن الصاغاني- كالجوهري - كان من محبي الأسفار والترحال، ورحلاته كثيرة زار فيها العراق والحجاز واليمن والصومال والهند أكثر من مرة.

والصَّغَانِي عالم واسع الاطلاع، له تآليف جمَّة عظيمة الفائدة في اللغة والحديث والقراءات...، ومنها معاجم لغوية أظهر فيها براعة وصدقا، واقتدى فيها بمعجم (الصحاح) ، وذكروا منها (العباب) و(التكملة والذيل والصلة) ، و(مجمع البحرين)، وأشهرها جميعا الأول، ويليه الثاني، وأما الثالث فلم يصلني مطبوعا، ولا أعرف عنه إلا القليل. ولقيت هذه المعاجم كلها- عبر الأزمان- شهرة مرموقة وثقة واسعة من لدن علماء زمانه فنهلوا منها ما شاؤوا، واتخذوها مصادر للغة وبيانها، وحجة علمية في مؤلفاتهم في ما تعلّق باللسان العربي ومعانيه، وعاء علوم الدين والدنيا.

و معجم (العباب الزاخر واللباب الفاخر) معدود في نوادر معاجم اللغة العربية المؤلفة في القرن السابع الهجري. ويقع في ثمانية وعشرين جزءاً على عدد حروف الهجاء، تتفاوت عدد أوراق كل جزء عن الآخر، لتفاوت عدد مفردات كل باب. ويمتاز معجم الصغاني بتحقيق مفرداته، وتوثيق مصادرها. ويقال إنه لم يتمه ، وإنما وصل فيه إلى لفظ (بكم) ، وفيه قيل:

إن الصَّغَانيّ الـذي حاز العلومَ والحـكمْ
كان قصارى أمـرِه أن انتهى إلى (بكـمْ)

والمعجم مطبوع بتحقيق فير محمد حسن، الجزء الأول، القسم الأول، ومراجعة وإشراف لجنة معجمية ، ضمن منشورات المجمع العلمي العراقي بغداد ، الطبعة الأولى 1398 هـ/ 1978م.

و(التكملة والذيل والصّلة) استدرك فيه على (الجوهري) ما فاته من اللغات، واستتم ما أغفله من معاني الكلمات، وتعقّب أوهامه، وما أخطأ فيه بالتصحيح . يقع في ستة مجلدات ضخمة ، نشر بتحقيق عبد العليم الطحاوي وإبراهيم الأبياري ومحمد أبو الفضل .ونُشِر مُصوَّرا عن دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى سنة 1970م. في ستة مجلدات. توفي الصغاني على الأرجح عام 650هـ / 1252 م.

2 - ابن منظور و (لسانه) :

هو أبو الفضل جمال الدين ابن منظور محمد بن مكرم الأنصاري الرُّويفعي الإفريقي ابن منظور. ولد سنة 630 هـ/1232 م. في القاهرة ، وقيل في طرابلس الغرب، وقيل في تونس. كان عالما في الفقه واللغة، خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي القضاء في طرابلس. أشهر إنجازاته معجم«لسان العرب» في عشرين مجلداً، جمع فيها أمهات كتب اللغة، ومن بينها (معجم الصحاح) فكاد يغني عنها جميعاً، كان مغرما باختصار الكتب المطولة فاختصر منها الكثير. كف بصره في آخر عمره، وتوفي في مصر عام 711 هـ/1311 م.

وأما معجمه « لسان العرب» فيعدّ من أضخم المعاجم العربية وأغزرها مادة، إذ بلغ عدد موادّه ثمانين ألف مادة، مع شواهد كثيرة، وأخبار،

وأشعار، جعلته موسوعة مختلفة الألوان، وحظي على مدى الأيام بتقدير العلماء وثقتهم، وإن كان لا يخلو أيضاً من بعض المآخذ.

ويقول صاحب (اللسان) في مقدمة معجمه إنه اعتمد على خمسة معاجم أساسية، هي أمهات كتب اللغة :

1- «تهذيب اللغة »، لأبي منصور الأزهري.

2 - «المحكم والمحيط الأعظم» ، لأبي الحسن بن سِيدَهْ .

3 - « الصحاح » لأبي نصْر الجوهري.

4 - « التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح ، المشهور بحاشية ابن برّي على الصحاح » لأبي محمد عبد الله بن بري المصري .

5 - «النهاية في غريب الحديث والأثر»، لأبي السّعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري.

ثم يلتفت إلى الجوهري وكتابه ، ليقول: «ورأيت أبا نصر إسماعيل بن حماد الجوهري قد أحسن ترتيب مختصره وشهّره بسهولة وضعه شهرةَ... فخفّ على الناس أمره وقرب عليهم مأخذه فتداولوه وتناقلوه ، غير أنه في جوّ اللغة كالذرة ، وفي بحرها كالقطرة، وإن كان في نحرها كالدرّة، وهو مع ذلك قد صحّف وحرّف...س. [20] وقد طبع «لسان العرب » مرارًا منذ سنة 1300هـ / 1882م، إلى اليوم.

3 - الفيروزابادي و (قاموسه المحيط) :

والفيروزابادي هو مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الفيروزابادي. ويختصر اسمه إلى (المجد). ولد في

(كارزين) أجمل مدن (شيراز) ، سنة 729هـ/1328م. كان عجيب الحفظ، وقد قال عن نفسه أنه (لا ينام حتى يحفظ مائتي سطر كل يوم). حفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره. اشتهر بنسبته إلى مدينة (فيروزأباد) موطن أبيه وجده. سافر في طلب العلم إلى بلاد كثيرة منها الشام ومصر وبلاد الروم والهند ، وتتلمذ على علماء كبار حتى صار إماما ومرجع عصره في اللغة والأدب والحديث والتفسير، وكان محبا للأسفار وطلب العلم، ولا يسافر إلا ومعه عدة أحمال ينظر فيها إذا نزل، ويحملها إذا رحل. وقصده طلاب العلم من جميع بلاد المسلمين، ينهلون من علمه الغزير، ومعرفته الواسعة. وله مؤلفات كثير منها : (الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف)...، وأشهرها معجمه (القاموس المحيط). عاش المؤلف حياة حافلة بالعلم ، وتوفي في مدينة (زَبِيد) باليمن ، سنة 817هـ /1414 م.

ويعدّ الرجل أشهر تلاميذ الجوهري، ومعجمه (القاموس) أشهر المعاجم التراثية اللغوية العامة التي سارت على درب الصحاح، وانتهجت سبيله في التبويب والترتيب على الإطلاق، وأكثرها رواجا وإقبالا عبر تاريخ الدرس اللغوي العربي منذ العصور الوسطى إلى اليوم.

ويبدو أنه أراد من تأليف معجمه (القاموس) أن يغُضّ من إكبار الناس للصحاح وصرْفهم عنه بأن يصنع لهم ما يفوقه علما ونظما، أو يبدع لهم ما ينافسه ويظهر عجزه وقلة بضاعته غير أنه لم يستطع أن يبتكر سبيلا جديدة، فاتبع خطاه ونسج على منواله في الترتيب والمنهج، بل وأخذ عنه كثيرا من المادة المعجمية كما هي.

وكان قد فكّر في بداية الأمر أن يصنع معجما ضخما ، قدّر له نحو ستّين جزءاً ، كي يتفوّق به على منافسه (الجوهري)، ويتظاهر عنه، إرضاء لنزعة الاعتداد بالنفس وحب الغلبة ، ولم يستطع أن يخفي تحامله على الجوهري، والغمز في قناته ، فصدح بالقول : « ولما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري- وهو جديرٌ بذلك، غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر؛ إما بإهمال المادة، أو بترك المعاني الغريبة النادّرة - أردت أن يظهر للناظر باديَ بدءٍ فضلُ كتابي هذا عليه، فكتبت بالحمرة المادة المهملة لديه» .[21]

وشرع في البداية يؤلف معجما أسماه « اللامع المُعْلَم العجاب، الجامع بين المحكم والعباب» ، ثم عدل عن المشروع إلى اختصار كل ذلك في كتابٍ محذوف الشواهد، مطروح الزوائد، مُعْرباً عن الفُصَح والشوارد ، وأسماه « القاموس المحيط » .

وطار صيت المعجم هذا، وشاع ذكره على كل لسان، حتى طغى اسمه على ما سواه، وحسب الناس لفظي (القاموس) و(المعجم) مترادفين، بل حل لفظ القاموس محل كل لفظ سواه للدلالة على المعجم، بوجه عام، لكثرة تداوله وسعة انتشاره، بل نجد من طلاب اللغة وشواردها في عصره من كان يتباهى بحفظ مادته المعجمية ، ويفاخر بذلك أقرانه.

وطريقة البحث فيه (القاموس المحيط) اقتفت أثر (الصحاح) في الوضوح والبساطة وقد لخصها قول الناظم:

إذا رمت في القاموس كشفا للفظة فآخرها للباب والبدء للفصل

ولا تعتبر في بدئها وآخرها مزيدا ولكن اعتبارك بالأصل .[22]

4 - الزَّبِيدِي و (تاجه) :

الزَّبِيدِيُّ هو السيد مرتضى بن محمد بن محمد بن محمد الزبيديّ (بفتح الزاي وكسر بعدها)، نسبة إلى مدينة زَبِيد، وهو بالتأكيد ليس الزُّبَيْدِيّ ، (بضم الزاي وفتح الباء العالم الأندلسي) ومختصر معجم العين . ولد عام 1145 هـ / 1732م ، في بلجرام (بلدة بالهند) ، ونشأ في زَبِيد باليمن. رحل إلى الحجاز، وأقام بمصر وتوفي بها، بسبب وباء الطاعون الذي اجتاح مصر. وتوفي صاحب (التاج) عام 1205 هـ / 1790م.

والزَّبِيدِيّ عالم جليل، وشيخ ضليع في علوم الحديث واللغة العربية والأنساب ...، وهو من كبار المصنفين في عصره. خلف حوالي (107) أعمال أدبية، بين رسالة وكتاب. أهمها وأضخمها معجمه المسمى «تاج العروس من جواهر القاموس» [23] .

و(التاج) هو من أعظم كتب التراث العربي، وأهمها شأنا في اللغة العربية. وهو في أصله شرح لمعجم القاموس المحيط، قد رتبه المؤلف بحسب الحرف الأخير من المادة على حروف الهجاء؛ أي على طريقة الصحاح للجوهري.

يضع مؤلفه مادة القاموس بين قوسين، والشرح خارجهما. وهو مع ذلك يضمّ إلى صميم اللغة أمشاجا من التراجم والبلدانيّات، والمصطلحَات المولّدَة، ويهتمّ بالشواهد، ويُعنى باللهجات ودلالات التراكيب. وتأتي أهمية المعجم من أن المؤلِّف أثبت فيه الألفاظ العامية التي كانت سائدة في عصره، وهو ما يعطي قدرة لدارسي تلك الفترة على تبيُّن ملامح الحياة الشعبية في البلدان العديدة التي اطلع على ثقافاتها.

وإذا كان «الفيروزأبادي» قد اختصر كتابه بكيفية يراها هو لغرض تربويّ لم يصرّح به، ووجّه عناية كبيرة إلى استيعاب أكبر عدد ممكن من ألفاظ اللغة وجعلها في أقلّ عدد ممكن من المجلّدات، فإن الزَّبِيدِيّ قد وجد«القاموسَ» متْناً، فأقام عليه شرحاً موسَّعا في«التاج». إذْ أرجع بعض الأقوال إلى رواتِها ٱلأُوَل ، وأضاف ذكر الرواة اللغويين فتمكّن من الكشف عن المراجع التي نقل عنها قبله «ليردّ في بعض الأحيان الاقتباس إلى مصدره الأصلي »[24] . وبذلك صار أكبر المعاجم اللغوية العربية وأغناها محتوى بما تضمّن من شروح مطوّلة، مستعينا بأكثر من مائة وعشرين كتابا من أمهات الكتب.

ويعدّ هذا المعجم آخر المدّ المعجمي- على رأي بعض المستشرقين- ، وبعده توقّف تماما إنتاج المعاجم العربية لما يقرب من قرن من الزمان ، وهي المدة التي صفق خلالها باب مصنع المعاجم إلى أن فتح في بداية العصر الحديث على يد علماء العربية اللبنانيين بظهور معجم « محيط المحيط » على يد المعلم بطرس البستاني عام 1870م، والذي يعتبر أول معجم لغوي عربي ولد في مطلع العصر الحديث.

والزبيدي ممن أطرى (الصحاح) وأثنى على صاحبه، فقال: « وأول هذه المصنفات وأعلاها عند ذوي البراعة وأغلاها كتاب الصحاح للإمام الحجة أبي منصور الجوهري ، وهو عندي في ثمان مجلدات بخط ياقوت الرومي، وعلى هوامشه التقييدات النافعة لأبي محمد بن بري، وأبي زكريا التبريزي » .[25]

كما يذكر الزبيدي بعدها أنه قد جمع مادته المعجميّة مما يقرب من مائة وعشرين كتاباً من بينها المعاجم السابقة، كالجمهرة، والتهذيب، والمحكم، والصِّحَاح، والمجمل، ولسان العرب، والتكملة وأساس البلاغة ...، وغيرها، موضحاً في مقدمته أنّ عمله قد اقتصر في كتابه (تاج العروس) على جمع ما تفرّق في هذه الكتب، إذ قال: « وجمعت منها في هذا الشرح ما تفرّق وقرنت بين ما غرّب منها وبين ما شرّق، ... وليس لي في هذا الشرح فضيلةٌ سوى أنني جمعت فيه ما تفرّق في تلك الكتبِ ».

وتولي المؤسساتُ العلميةُ في البلاد العربية مثلَ هذه المعاجم التراثية الخالدة عناية خاصة. وقد علمتُ أنه «على مدى يومين احتفل المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت بانتهاء تحقيق وطباعة معجم »تاج العروس« كاملا والذي جاء في أربعين جزءا... بمشاركة 25 عالما لغويا وباحثا ومراجعا من كل أرجاء الوطن العربي... وأن تحقيق هذا العمل قد استغرق ما يقرب من 36 عاما ». [26]

3 /2 - كتب شهيرة حول (الصحاح) :

والمعجم أي معجم مهما علت قيمته وسمت مكانته في مجاله هو عرضة للتنقيح والجرح والتعديل والنقد، وتحبير الحواشي بالتذييل والتكميل، والاختيار والتلخيص... وهلم جرا. وكان (الصحاح) محورا لمثل هذه العوارض، إذ دارت حوله (دراسات) عبر العصور قديما وحديثا، وسنذكر بعضا منها لاحقا. ولا يقدح هذا الفعل في الكتاب ولا في صاحبه؛ بل هو – في نظرنا – ظاهرة لغوية صحية مطلوبة بإلحاح، على

اعتبار أن (اللسان الحي) في تطوّر وتغيّر مستمر...، وفقا لتطوّر الناطقين به، إن سلبا أو إيجابا. وكل جيل ينظر إليه من الزاوية النفعية الخالصة، يأخذ منه ما يحتاج للتعبير عن أغراضه، وليس من الغضاضة أبدا إن وجدنا من جاء بعد الجوهري يتم ما يراه نقصا، أو يصحّح خطأ، أو وهْما، أو استدراكا...، فبرزت ثمار كثيرة من اجتهادات العاملين في هذا الميدان، عبر الأزمان والأوطان، وأعطت (أكلها) بأسماء متباينة ، ومناهج مختلفة.

وهاك بعضا منها على سبيل التنوير:

1 – (التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح)، لأبي محمد عبد الله بن برّي المصري، (ت 582هـ/1186 م)، ويعرف الكتاب بين الناس باسم «حواشي ابن بري على الصحاح ». وأصلها استدراكات مسهبة، تجاوز المؤلف فيها ما وَهم فيه الجوهري إلى التوسع في شرح الشواهد ، أو تفصيل المسائل اللغوية الصرفية والنحوية المتعلقة بها ، وربما ذهب أبعد من ذلك ليصل إلى قضايا الشعر والشواهد؛ كنسبة الشاهد إلى قائله، عندما يغيب علمه عن الجوهريّ. نشر هذا الكتاب بتحقيق مصطفى حجازي، عن دار الكتب المصرية لأول مرة سنة 1980م ، في مجلدين.

2 – (تهذيب الصحاح) ، لأبي المناقب، أو أبي الثناء محمود بن أحمد بن محمود الزنجاني الشافعي. كان المؤلف فقيها شافعيا مفتيا، اشتغل مدرسا في نظامية بغداد ، وقتل سنة 656هـ /1258 م ، بسيوف التتار عند دخولهم بغداد. أدّت عملية التهذيب إلى اختصار مواد الصحاح إلى ما يقارب ثلث الأصل. وقد حققه عبد السلام هارون و أحمد عطار، وعني

بنشره محمد الضبان، في دار المعارف بمصر، سنة 1953م، وظهر في ثلاثة أجزاء على ترتيب الصحاح نفسه. وقام لاحقا محمود خاطر بإعادة ترتيبه حسب ترتيب المعاجم الحديثة، ليطبع سنة 1907 م، منقحا ومحذوفة منه كل الكلمات النابية التي لا ترضاها الأذواق والأسماع.

3 – **(مختار الصحاح)**، للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، المتوفى عام 760هـ/ 1349 م. بلغت مادته ما يقارب عُشر ما في الصحاح، ولذا كان مختصراً جداً . واقتصر المؤلف في انتخابه للألفاظ على ما رآه ضروريا لكل عالم فقيه، أو حافظ، أو محدث، أو أديب...، معتمدا ظاهرة كثرة الاستعمال وجريانها على الألسن، خصوصاً ما تعلّق بألفاظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وتجنب غريب اللغة وعويصها.

وظهرت طبعته أول مرة عام 1325هـ/ 1907م ، ثم تعددت طبعاته في بلاد الشام ومصر، بإثبات ما حذف منه تارة، والعودة إلى الحذف تارة أخرى.

4 – **(نفوذ السهم فيما وقع للجوهري من الوهم)** ، وكتاب (غوامض الصحاح) وكلاهما من تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (نسبة إلى مدينة صفد بفلسطين) ، المتوفى عام 764 هـ/ 1362 م.

و« نفوذ السهم» هذا كتاب قد تخصص في تحديد أوهام الجوهري وعثراته، ولم يتجاوز ذلك، وقد استخلصه المؤلف من تعليقات علماء كُثُر، وزاد عليه فوائد أدبية واستدراكات حسنة كثيرة انفرد بها، وقد اعتمد ما هو شائع من (فنون القول) ، عند فصحاء العرب، مستعينا

بأمهات المعاجم. نُشِر حديثا بإصدار دار البشائر الإسلامية، بيروت ، بتحقيق الأستاذ محمد عايش.

وأما كتاب (غوامض الصحاح) فهو من كتُبه التي وصلت إلينا تامة بخطّ مؤلفها. تم تحقيقُه ونشرُه من قبل معهد المخطوطات العربية بالكويت عام 1985م ، وأعيد نشرُه في (مكتبة لبنان ـ ناشرون) عام 1996م.

وفي العصر الحديث ظهرت مؤلفات أخرى تدور في فلك صحاح الجوهري وتوابعه، وقد اجتهدتْ في ترقية المادة وتنقيتها وتكميلها، وإعادة تنضيدها، كمثل:

1 - **(المختار من صحاح اللغة)** ، لمحمد محيي الدين عبد الحميد، ومحمد عبد اللطيف السبكي، وقد أضافا إلى مختار الصحاح (السابق الذكر) زيادات، مع المحافظة على الأصل، ووضع زياداتهم بين أقواس لتمييزها عنه. طبع عدة مرات ابتداء من سنة 1353هـ = 1934م.

2 - **(إيضاح مختار الصحاح)** ، لنديم المرعشلي ، وأسامة المرعشلي، وعادل المرعشلي. وهو إحياء لمختار الصحاح على طريقة متكاملة تقوم على إكمال الآيات القرآنية وتخريج الأحاديث النبوية وإتمام الأبيات الشعرية مع شرح ما يعسر فهمه من ذلك كله. نشر سنة 1997م.

3- **(الصحاح في اللغة والعلوم)**، لنديم مرعشلي وآخرين، وفي أواخر القرن الماضي ظهرت طبعة حديثة تنسب إلى منهج الصحاح وتعزى إليه. وتطمح إلى تجديد صحاح العلامة الجوهري، باعتماد معالجة حديثة متطورة كإدخال الجديد من المصطلحات العلمية والفنية التي تمخضت عن الدراسات العلمية الجادة للمجامع والجامعات العربية. مع إعادة

ترتيب المادة المعجمية على أوائل الأصول بدلاً من أواخرها. وصدر الكتاب عن دار الحضارة العربية، بيروت 1974, في مجلدين.

4 - الجوهري و (صحاحُه) في الميزان :

قامت شهرة معجم الصحاح وصاحبه على عوامل كثيرة داخلية وخارجية، جعلت منهما مضرب المثل، ومحور العناية بالدرس والتمحيص والتدقيق والتحقيق والنقد والإطراء والتجريح. وكأي عمل إنساني مهما علت قيمته وارتفعت سمته فإن فيه ما يقال ويردّ عليه، وما ذلك بضائر له، فحسنات الإمام الجوهري العلمية والفنية قد أثقلت ميزانه، وتفرده عن الكثير من السابقين واللاحقين بمزايا قلما تجد لها مثيلا عند غيره، مثل :

1 – نزوع النفس إلى البحث عن الجديد في مواقعه، واحتمال المتاعب في سبيل تحقيق مآربه، وتكلّف مشقة البحث عن المعلومات الأصيلة في مظانها، والصبر على متاعبها، وساعده في ذلك علوُّ الهمّة، وما يمتلكه من فطنة وذكاء ورجاحة العقل ، ونشأة في وسط علمي وأدبي زاخر.

2 – حقق الجوهري ثنائية إبداعية تتمثل في النظر في صحيح اللغة وتقصير البحث فيه، وذلك بخلاف سابقيه. وابتكار منهج القافية في ترتيب مواد المعجم وترسيمه تيسيرا للباحثين.

3 – الابتعاد عن التعقيد الذي عرفه منهج الخليل، ذلك الذي استمرّ ما يقارب ثلاثة قرون (من القرن 2 إلى القرن 4 الهجري).

4 – الحرص على الدقة العلمية والابتعاد عن التحريف والتصحيف بضبط الكلمات بلسان القلم.

5 – نهاية الجوهري علامة مسجَّلة :

لقد كان (معجم الصحاح) أهمّ عامل في بناء مجد الجوهريّ العريض، إلا أنه كان بالمقابل سببا لتعاسة صاحبه، فقد قيل أنه لما صنّف الصحاح سمع عليه إلى باب الضاد المعجمة، ثم أصيب بعد ذلك بمرض نفسي (الوسواس) واشتدّت عليه الأزمة، فصوّرت له أوهامُه أن يحلقَ في الفضاء مع الطيور والنسور، فتنقَّل إلى الجامع القديم بنيسابور، وصعد سطحه، ثم قال: «أيها الناس، إني قد عملتُ في الدنيا شيئاً لم أسبق إليه، وسأعملُ للآخرة أمراً لم أسبقْ إليه » ، وضمّ إلى جنبيه مصراعي بَابَيْن وتأبَّطهما ، وزعم أنه يطير، فوقع ميِّتا شهيد الفكر والإبداع.

واختلفوا في سنة وفاته، كما اختلفوا في المكان الذي صعده، أهو سطح بيته، أم سطح مسجد، والراجح أنه توفي في حدود سنة 400هـ/1009م. والله أعلم.

وفي الختام ...، نقول: يا حبذا لو تتكفَّل المؤسسات العربية ذات القدرة العلمية والمادية في هذه البلاد الشاسعة بإحياء مثل هذه المناسبات الطيبة حتى يتعرّفَ طلابنا من أبناء هذه الأجيال الشابة على تراث الأجداد وما صنعوا من مفاخر لهذه الأمة المجيدة ، فلعلّ بهذا الفعل الخلاق تحي القلوب ويعتبر الألباب ، والله من وراء القصد.

مصادر البحث ومراجعه

1 -ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت. ط2 ، ج4.

2 -ابن جني، عثمان الموصلي، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط2. ج1.

3 -ابنُ حُوَيْلي ميدني، المعجم اللغوي العربي من النشأة إلى الاكتمال ، طبعة دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر 2003.

4 -ابنُ حُوَيْلي ميدني ، المعجمية العربية في ضوء البحث اللساني والنظريات التربوية الحديثة. (مخطوط) تحت الطبع.

5 - ابن خلدون، المقدّمة. تح / علي عبد الواحد وافي. ط2 / لجنة البيان العربي بيروت. 1968.

6 -ابن مضاء القرطبي، الردّ على النحاة ، حققه شوقي ضيف ، وطبعته دار المعارف بالقاهرة ، ج م ع . ط2 .

7 -ابن منظور، لسان العرب ، تحقيق عامر أحمد حيدر وعبد المنعم خليل إبراهيم ، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 / 2003م، ج1 .

8 ـ إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي بمصر، 1956, ج 1 .

9 - جريدة (أخبار الأدب)، وهي فرع عن شبكة (أخبار اليوم المصرية)، العدد 429, ليوم 17 فبراير 2002م.

10- دي سوسور، محاضَرات في الألسنيّة العامّة. ترجمة يوسف غازي، ومجيد النصر. منشورات المؤسسة الجزائرية للطباعة 1986م .

11- الزبيدي، مرتضى ، تاج العروس من جواهر القاموس ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ط1/1306هـ. المجلد 35 .

12- السبكي، تاج الدين ، طبقات الشافعية الكبرى، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 1413هـ/ 1992م، ج4.

13- السيوطي، جلال الدين ، بغية الوُعَاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر، ط2/1979م، ج1.

14- محمد العلمي، العروض والقافية، دراسة في التأسيس والاستدراك ، دار الثقافة ، الدارالبيضاء ، المغرب.

16ـ عبد الله درويش، المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين للخليل بن أحمد، مكتبة الأنجلو- المصرية القاهرة 1956م .

17- عبد الغفور عطار، مقدمة الصحاح، ج1.

18- الفيروزأبادي ، القاموس المحيط ، للفيروزآبادي ، دار الكتاب العربي بيروت ، (د.ت) . مقدمة.

19- ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، مكتبة عيسى البابي الحلبي، د.تا، ج5.

20- ياقوت الحموي، معجم البلدان ، دار صادر بيروت ، 1957م ، ج5.

الهوامش:

1 - معجم الصحاح ، قاموس عربي- عربي .تأليف إسماعيل بن حمّاد الجوهري. تحقيق خليل مأمون شيحا. الناشر، دار المعرفة للطباعة والنشر. تاريخ النشر2005/08/01 .

2 - ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، 1957م، ج5, ص 331

3 - المصدر نفسه ، ج4 ، ص 332

4 - هو الوزير الصالح أبو علي حسن بن علي بن إسحاق الطوسي ، يعد من أهم الرموز التاريخية . بذل جهودًا مضنية لخدمة الشريعة الإسلامية، والمحافظة على المذهب السني. عني به أبوه فحفّظه القرآن وعلّمه المذهب الشافعي، وغرس فيه الأخلاق الفاضلة والخلال الكريمة فشب في غاية الفطنة والذكاء والحكمة والعقل، والقدرة على تصريف الأمور، والكياسة وحسن السياسة ، قال ابن الأثير في وصفه: «إنه كان عالمًا ديّنًا، وجوادًا عادلاً حليمًا، كثير الصفح عن المذنبين، طويل الصمت، كان مجلسه عامرًا بالقراء، والفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح» .

(انظر الكامل في التاريخ، لابن الأثير، (ج4/ ص341 وما بعدها).

تولّى نظام الملك الوزارة، فكان زمانه مرحلة جديدة من مراحل عزة الإسلام ونهضة الأمة، وكان هو نفسه يبدي اهتماما منقطع النظير بالعلماء والفقهاء والأدباء ، يعرف قدرهم ، ويثّمن دورهم غاليا في رفع هامة الأمة وعزتها أمام الأمم المتحضرة، لا يتردد في فعل ما يستوجب تحضير العقول وتربية النشء ، ولأجلذلك أسّس نظاميات (مدارس) كثيرة ومتميزة ، في حاضرة الخلافة الإسلامية، وكان من أجلها (نظامية) بغداد التي تأسست عام 457هـ/ 1064م، على نهر دجلة، وبنى حولها أوقافًا لتمويلها، وأقام بها عديدًا من المرافق والخدمات؛ لتشجيع الطلاب على الدراسة فيها . قتل غدرا يوم الخميس في العاشر من شهر رمضان عام 485هـ/ 1092م. (انظر قصة اغتياله في طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، ج4, ص185 وما بعدها).

5-هي مدينة فاراب، أو «باراب» كما ينطقها الأتراك، وهي ولاية في حوض نهر سيرداريا في بلاد ما وراء النهر. منطقة سبخة، لكن بها حقول ومزارع.

6-هو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة، الوزير المشهور توفي 328هـ/ 939م. نبغ في الخط العربي وبلغ مرتبة عالية في فنه إلى أن انتهت إليه جودة الخط وحسن تحريره. وضع القواعد المهمة في تطوير الخط العربي وقياس أبعاده وأوضاعه، ويعتبر المؤسس الأول لقاعدتي الثلث والنسخ، وعلى طريقته سار الخطّاطون من بعده.

7-راجع ترجمة الجوهري في " بُغية الوُعَاة في طبقات اللغويين والنحاة " للسيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2/1979م، ج1, ص446 ـ 448. رقم الترجمة 913 . وفي " معجم

الأدباء " لياقوت الحموي، مكتبة عيسى البابي الحلبي، د.تا، ج5, ص 151, وما بعدها.

8 ـ انظر كتاب ابن مضاء القرطبي، المعروف باسم «الرد على النحاة»، حققه المرحوم شوقي ضيف، وطبعته دار المعارف بالقاهرة، ج م ع، ط2.

9-راجع محمد العلمي في كتابه " العروض والقافية " دراسة في التأسيس والاستدراك ، دار الثقافة ، الدارالبيضاء ، المغرب. الصفحات 238 – 254 ، ويذكر المؤلف أنه وجد لكتاب (عروض الورقة) نسخة مخطوطة ، محفوظة بالخزانة العامة بالرباط ، تحت رقم 930.

10-إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي بمصر، 1956, ج 1 ، ص 33.

11-ينظرُ كتابنا " المعجميّة العربية في ضوء البحث اللساني والنظريات التربوية الحديثة " . ط/ دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر 2009م.

12-ابن جني ، الخصائص ، ج1, ص 314

13- ابن خلدون ، المقدّمة. تح / علي عبد الواحد وافي. ط2 / لجنة البيان العربي بيروت. 1968.ج 4. ص 1345. وابن خلدون هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون. مؤرّخ وفيلسوف اجتماعيّ عربي. ولد بتونس عام 1332م ، ونشأ فيها. أقام في تلمسان ثم انتقل إلى مصر حيث تولّى قضاء المالكية. توفي بالقاهرة عام 1406 م.

14- دي سوسور، محاضَرات في الألسنيّة العامّة. ترجمة يوسف غازي، ومجيد النصر. منشورات المؤسسة الجزائرية للطباعة 1986م . ص 20 .

وفيرديناند دي سوسور (Firdinand de saussure) لسانيّ من أصل سويسري ، ولد في جنيف 1857م ودرس بها، ثم في ليبزيغ (Leipzig). وكان أول كتبه " مُذكّرة على نظام حروف العلّة في الألسن الهندية – الأوروبية " ...

Mémoire sur le système des voyelles dans les langues Indo- européennes

15- عبد الغفور عطار ، مقدمة الصحاح ، ج1, ص38

16-راجع كتابنا " المعجم اللغوي العربي من النشأة إلى الاكتمال " ، طبعة دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر 2003 ، ص 58 76 -

17-عبد الغفور عطار، مقدمة معجم الصحاح.

18- يراجع تاج اللغة وصحاح العربية، (مصدر سابق) ، ج 1, ص 33.

19 - مرتضى الزَّبيدِيّ، تاج العروس، المجلد 35 ، ص 308

20-ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر وعبد المنعم خليل إبراهيم ، دار الكتب العلمية

بيروت ، ط1 / 2003م ج1, ص 6 ، وما بعدها.

21- انظر مقدمة القاموس المحيط ، للفيروزآبادي ، دار الكتاب العربي بيروت ، (د.ت) .ص 03

22-المصدر نفسه، ج1, ص8

23-لم أعثُر في المصادر التي بين يديَّ على زمن واضح يؤرّخ لظهور هذا المعجم في الساحة التربوية.

24- عبد الله درويش، المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين للخليل بن أحمد، مكتبة الأنجلو – المصرية القاهرة 1956م . ص 109

25- انظر تاج العروس من جواهر القاموس، منشورات دار مكتبة الحياة بيزوت، ط1/1306هـ، ص 03

26- راجع جريدة (أخبار الأدب)، وهي فرع عن شبكة (أخبار اليوم المصرية)، العدد 429, ليوم17 فبراير .